الفصل الثالث: طرائق السّلام ووسائله

وكما أنّ العنفَ وسيلةٌ في الحياة، فإنّ السّلام ثقافة كاملة في حدّ ذاتها. وتمامًا كما أنّ هناك طرقًا للعنف، فإنّ للسلام مبادئ واضحة وطرقًا. وهنا، نذكر بعض الأساليب التي لها علاقة بسلوك النشاطات السلميّة، وهذا سوف يظهر كيف يمكن إحلال ثقافة السّـلام، وكيف يمكن للمرء بالطبع تخطيط مسار حياته في كلّ الأمور؛ حتى يتسنّى لجميع البشر العثور على فرص لتحقيق طموحاتهم.

التسامح هو السّلام

إنّ نتيجة عدم التسامـح هي العنف، ونتيجة التسامح هـي السّلام. وهذا يلخّص جوهر كلّ من السّلام والعنف. إنّ جوًّا من السّلام سوف يسود في أيّ مجتمع من المجتمعات التي تتميّز بالتسامح، بينما يسود جوّ من العنف في أيّ مجتمع يعاني فيه غالبيّة الناس نقصًا في التسامح. وَوَفقًا لنظام الطبيعة، فإنّ العنف ليس مفيدًا لا لمرتكبيه ولا لأولئك الذين يتعرّضون له.

إنّ التسامح ميزة إنسانيّة أخلاقيّة عالية الجودة، في حين أنّ التعصّب هو انحطاط إلى مستوى الحيوان. وعليه، فإنّ فعل التسامح ليس مسألة إكراه: إنه ينتج على نحو طبيعي من الفاعل، وهو في حالة علوّ أخلاقيّ معنويّ. إنّ أيّ هدف نسعى إلى تحقيقه من خلال القـوّة الغاشمة، يمكن تحقيقه دائمًا على نحو أفضل عن طريق التسامـح؛ فعندما يصبح الفرد غير متسامح في حالات غير سارّة، فإنه يضعف نفسه إلى حدّ كبير، ويصبح من ثَمّ غيرَ قادر على التعامل معَ المشكلات على نحو فعال. ولكن، عندما يحافظ على موقف

التسامح فإنه يحفظ كلّ طاقاته، ويكون قادرًا على التعامل بفاعليّة أكبرَ معَ المسائل المطروحة أمّامه.

إنّ عدم الانحطاط إلى سلوك اللاتسامح، رغم الأوضاع غير السارّة، هو دليل واضح على ضبط النفس. وكلّ من لديه هذه القـدرة فإنها تعزّزه على نحو لا يمكن فيه لأحد أن يتغلب عليه.

التجنّب لا المواجهة

من الممكن جدًّا تجنّب العنف، وحتى رغم وجود سبب لتبريره كخيار، وهذا ممكن من خلال الاستراتيجيّة السلميّة لتجنّب الصراع.

إنّ مثل هذا التجنّب يعدّ أنجع وسيلة للتخلّص من العنف، وأهمّ مبدأ لحياة اجتماعيّة سلمية. ومـن الجدير بالذكر، أنّ السير فـي طريق التجنّب يبقي الشخص في المجال السلميّ، وعلى العكس تمامًا، فإنّ طريق المواجهة يدفع المرء إلى اتخاذ عمل العنف ضدّ الخصوم.

لا يوجد أيّ فرد أو مجتمع في العالم الحاضر يعيش وحيدًا، فهناك العديد من الآخرين الذين يسعون إلـى تحقيق أهدافهم، ويمتلكـون جداول أعمال منفصلة خاصّة بهـم. لهذا السبـب، فإنهم غالبًـا ما يجـدون أنفسهم في المواجهة معَ الآخرين.

في مثل هذه الحالة، هناك طريقان للإنسان، أمّـا التجنّب أو المواجهة، ولا يوجد خيار ثالث. الآن، إذا اختار الإنسان المواجهة فإنّ النتيجة ستكون صدامًا. ومن الواضح من تاريخ الإنسانيّة كامـلاً أنّ المواجهة تصعّد فقط مشاعرَ العداء في قلوب الناس. وبذا، فإنها لا تفيد أيًّا من الجانبين في أيّ

وسيلة حقيقيّة. ولذلك، فإنه ينبغي تفضيل سياسة التجنّب أكثر من المواجهة. وبالإضافة إلى أنّ وسيلة التجنّب توفّر عليك مزيدًا من الخسائر، فإنها أيضًا تسمح لك بمواصلة السير على طريق التقدّم من غير أيّ عائق.

وفي الواقع، فإنّ أيّ فعل تجنّب يظهر بأنه يفيد الطرف الآخر، لكنّ هدفه الفعليّ هو إنقاذ الشخص من عدم جـدوى المواجهة، ممّا يتيح لرحلة حياة الإنسان أن تستمرّ من عدم مواجهة أيّ عقبة.

النهج المعتمد

إنّ الذين يعتمدون أسلوب العنف هم أولئـك الذين لا يتحلّون بالصبر، أو الذين لا يؤمنون بالمثابرة. وإنّ أولئك الذين يختارون الحلّ السلميّ يجدون أنّ قوانين الطبيعة جميعَها تكون في صالحهم. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ أولئك الذين يختارون العنف لا يمكن أن يحظوا بمثل هذا التأييد من قوانين الطبيعة، ومن ثَمّ فإنّ هؤلاء المحرومين لا يمكنهم التطلّع إلى أيّ شيء في عالم الحقائق سوى الفشل والخراب.

ما معنى «أن تخطو في طريق السّـلام»؟ هذا يعني، أنّه وحتى في مواجهة الأحداث غير السارّة، لا ينبغي على الفـرد أن يفقد صبره. وبهذه الطريقة، فإنّ خطّ تفكيره الإيجابيّ لن يصاب بالإحباط، وسيميّز بعدها وبوضوح بين الممكن والمستحيل. وبهذا فقط سيكون قادرًا على تعيين الممكن كهدف له؛ إذ يجب عليه هنا أن لا يتوقّع نتائج فوريّة.

فبدلاً من ذلـك، في تحقيق مهمّتـه، عليه أن يختار الطريقـة التدريجيّة. ولا ينبغي أن يصـاب بالاكتئاب بسبب خسائره، ولكـن ينبغي أن يشارك في

نشاطـات هادفة وعينـاه تتطلعان قُدُمًـا نحو المستقبـل. وينبغـي أيضًا أن يكون مسرورًا لكلّ ما يتلقى لحظة بلحظة، وأن يكون صبورًا بانتظار بركات المستقبل وخيراته. كما يجب عليه أن يبقي رغباته تابعة لقوانين الطبيعة بدلاً من محاولة جعل القوانين تخضع لرغباته. إنّ الحقيقة هي أنّ الصبر موقف إيجابيّ تمامًا؛ إنّه ليس بالسلبيّ ولا بالحياديّ.

صديق في العدو

إنّ سبيل العنف يزيد من عداوة الخصوم. وعلى العكس من ذلك، فإنّ سبيل السّلام يضع حدًّا لمثل هذه العداوة. إنّه يحوّل حتى العداوة إلى صداقة.

وفي هذا السياق، فإنّ دراسة الطبيعة البشريّة تبيّن لنا أنّه قد يكون هناك صديق محتمل في داخل كلّ عـدو. وعلينا أن نكتشف هـذا الصديق ونقبله كمعجزة حقيقتهـا أنّ الشخص الـذي كان في وقت ما عدونـا أصبح أقرب الناس إلينا كصديق.

الحقيقة هي أنّ العداوة ليست أمرًا طبيعيًّا؛ إنّها ردّة فعل مصطنعة؛ فلأي سبب من الأسباب يصبح أيّ شخص عـدوك ظاهريًّا، فإنك ينبغي أن تظل دَمِثًا في تعاملك معَه وأن تتصرّف على نحو جيّد، حتى لو كان ذلك من جانب واحد في مواجهة الاستفـزاز. إنّ ردّ فعلك السلميّ هذا سيـؤدّي إلى إخماد المشاعر السلبيّة في عدوك، كما أنّ سلوكك الجيّد سيؤدّي إلى إيقاظ إنسانيّته النائمة، ويحوّله إلى كائن بشريّ جديد يتمتّع بصفات أفضل من ذي قبل.

الحقيقة هي أنّ المزاج نفسه يكون مشتركًا بيـن الأطفال حديثي الولادة جميعهم، وهو تفسيرُ لماذا يكون كلُّ شخص في البداية السيِّدَ الطبيعة، وفي

وقت لاحق يصبح أمّا السيّد العدوّ، أو السيّد الصديق. وهذا يعني أنّ الطبيعة التي تمتلكها يمتلكها عـدوّك أيضًا. ولذلك، يجب على المـرء أن يسعى في العدوّ إلى الإنسان المشترك بينهما، ويجب على كلّ فرد أن يتوقع من الآخرين ما كان يتوقع لنفسه. إنّ قانون الطبيعة يعطي ضمانة بأنّ توقعاته سوف لن تذهب سدًى.

مبدأ السبب والنتيجة

إنّ العنـف بعبارة أخـرى هو وضـع اللوم الخاصّ بأخطـاء شخص على الآخرين. لكنّ هذا العالم يستند على مبدأ السبب والنتيجة، وعندما يعاني أيّ شخصـ بعضَ الألم، يجب عليـه أن يبحث عن السبب فـي نفسه، وليس بمحاولة العثور عليه في مكان آخر؛ فكما تزرع تحصد.

وعندما يتجذّر واقع الحياة هذا في ذهن إنسان، فإنّه لن يحمّل أيّ شخص آخرَ مسؤوليّة آلامه، والقيام بالعنف ضدّهم. في الواقع لا؛ فهو سوف يحلّل أفعاله بموضوعيّة ليكتشف بنفسه أوجُهَ القصور ويصحّح أخطاءه؛ من أجل ألا يكون ضحيّة معاناة غير ضروريّة.

إنّ الانخراط في نشاطـات تخريبيّة ضـدّ الآخريـن مستخدمًا مشكلاته كذريعة يجعله كمريض يَعُـدّ جاره مسؤولاً عن مرضـه فيتقاتل معه. أمّا في المدينة حيث تنحصـر حركة السير في الجهة اليمنى، فـإنّ أيّ شخص قد يحاول مخالفة هذه القاعدة بالسّياقة إلى اليسار؛ وبذا سيرتكب حادثًا.

من الواضح أنّ هذا الحادث قد وقع بسبب اصطدام سيّارة أخرى به، لكن، لن يكون له أيّ مبرّر للقول إنّ سائق سيّارة قد ضرب سيّارته، بل يتعيّن عليه

أن يعترف بأنّ سيّارته هي من اصطدمت بالآخر، لأنّه كان يسوق على الجانب الخطأ من الشارع، في حين أنّ الآخر كان يسوق السيّارة على الجانب الأيمن.

وينطبق الشيء نفسه على الجوانب الأخرى جميعها للوجود البشريّ؛ فكلما كان عليك أن تواجه أيّ خسارة في الحياة، فيجب أن تعلم أنّ تلك الخسارة كانت بسبب قصور، وأنّ هذا القصور إنما يتعلّق بك أنت أكثر ممّا يتعلّق بغيرك. إنّ طريقة التفكير هذه تُعَدُّ سلميّة، وهي طريقة التفكير الصحيحة في شؤون الحياة. فإذا كنت تتّبع في تفكيرك هذه الطريقة الصحيحة، فعندها ستكون قادرًا على ضبط نفسك وتصحيحَ الأخطاء الخاصّة بك، وهذا سيؤدّي إلى إنقاذ مستقبلك. أمّا إذا كنت تأخذ المسار المعاكس تمامًا، فسوف تلقي اللوم على الآخرين بسبب مشاعرك السيئة وقت الشدّة، ومن ثَمّ تتّخذ خيار العنف، وتتّبع نهج اللاسلم؛ وفي المُحصلة فإنّ النتيجة ستكون تدمير مستقبلك، بعد أنْ كنت قد دمّرت بالفعل حاضرك وماضيك.

دع قانون الطبيعة يأخذ مجراه

وفقًا لقانون الطبيعة في هذا العالم، فإنّ الحقيقة تعيش، بينما يتجه الباطل نحو الزوال. ونظرًا إلى هذا الوضع، يكفي أنْ نتّبع سياسة الصمت لتدمير الباطل. فالجهر والحركات الاحتجاجيّة لإثارة التحريض ضدّ الباطل يمنحه حياة في الواقع، في حين أنّنا وبتبنّي سياسة التجنّب نمنحه موتًا طبيعيًّا.

إنّ السكوت عن الباطل يعني تجاهله، وعدم إعطاء أيّ ردّ فعل عنيف، أو إطلاق أيّ احتجاجات ضدّه. ومعَ ذلك، فإنّ الذين يختارون مثل هذه السياسة هم أولئك الذين على علم بقوّة الطبيعة، الذين يضعون ثقتهم فيها. أمّا أولئك الذين لا يدركون هذا فإنهم يمنحون الحياة للباطل من خلال الاحتجاج عليه.

ينغمس الكثير من الناس في ممارسة العنف تحت اسم طمس الباطل، وهذه ليست سوى حماقة؛ فليس للكذب جـذور ثابتة، فهو إلى زوال. وفي مثل هذه الحالة، ليست هناك حاجة إلى العنف غيـر الضروريّ لطمس ذلك، كما أنّ اعتماد المسار السلميّ لمواجهة الباطل يعدّ جيّدًا مثل اقتلاعه.

سياسةٌ عفا عليها الدهر

إنّ العصر الحاضر هـو عصر العولمـة، فلقد أصبح العالـم كاملاً قرية عالميّة. وبالانطلاق من وجهة النظر هذه، نرى أنّ العنف المسلّح قد اكتسب طابع المفارقـة التاريخيّة، فلـو سألت أولئـك الذين يعملون فـي المواجهة المسلّحة عن سبب اعتمادهم هذا النهج، فإنّهم سيقولون إنّهم فعلوا ذلك من أجل إسقاط الحكومة الحاليّة، وإنّهم يهدفون إلى بناء نظام جديد، وتحقيق هدفهم للاستيلاء على السلطة. ولكنّ كلّ هذا التفكير هو نتيجة لكونهم غير مدركين تمامًا لروح هذا العصر.

لقد شهد هـذا العصر تحـوّلاتٍ عظيمةً لم يَعُـد الاستيلاء علـى السلطة السياسيّة أحد متطلباتهـا، وحتى من غير امتلاك السلطـة السياسيّة، فإنّ أولئك الذين يهدفون إلى تغيير الأنظمة الاجتماعيّة يستطيعون إنجاز أيّ شيء يريدون من غير الحاجة إلى مؤسسات سياسيّة.

إن إمتلاك وسائل الاتصالات والتصنيع الحديثة قد وضعت مبدأ الحكم إلى موضع ثانوي وبالتالي تحول الحكم إلى إداري وليس ملكي أو حتى حكم القلة وبالتالي فإن اي سعي للتغيير والإصلاح يمكن أن يتم دون الطموح والحاجة لكيان سياسي.

إنّ الحقيقة هي أنّ السلطة السياسيّة قد تمّ خفضها لدرجةٍ لا تتعدّى الصداع الذي تسبّبه لمن يتعاطونها. لذلك، يجب عليك ترك هذا الصداع للآخرين، وأن تحاول تحقيق أهدافك سلميًّا، سوف ترى حينها أنّك قد انتصرت في الحرب من غير الدخول في معركة، ومن غير امتلاك السلطة السياسيّة، وتمكّنت أيضًا من الحصول على الفوائد المحتملة جميعها، وربما أكثر ممّن كانوا سابقًا مرتبطين معَ السلطة السياسيّة.

العنف هو نتيجة للكراهية

إنّ أحد الأسباب الرئيسة للعنف هو الكراهية، والكراهية في الأساس هي نتيجة للتفكير السلبيّ. إنّ التفكير الإيجابيّ والكراهية لا يسيران جنبًا إلى جنب، وبناءً على هذا، وللمحافظة على مجتمع مسالم، فمن الضروريّ ألا نتوقف عن تشجيع التفكير الإيجابيّ أبدًا. وهنا ينبغي شرح الأحداث بطريقة لا يلجأ الناس فيها إلى التفكير السلبيّ، بل على العكس من ذلك، يشعرون بالحافز للتفكير بطريقة إيجابيّة.

سياسة العنف الدينيّ

إنّ السياسة العاطفيّة هي أحد أسباب الكراهية والعنف، وخصوصًا عندما تقوم على شعار: «الدين في خطر!»، وعند تقديم صورة خطأ أو مُبالغ فيها، فإنّ بعض الكُتاب والمتحدثين يحاولون أن يعطوا انطباعًا بأنّ دينهم تحت التهديد من الآخرين، وقد تمّ الآن شنّ حملة عاطفيّة وبحماسة كبيرة تحت اسم المحافظة على الدين. وبعيدًا عن إنقاذ الدين من الخطر، فإنّ هذه السياسة تهدد المجتمع ككلّ من خلال تدمير السّلام.

إنّ هـذا المفهوم الذي ينصّ على أنّ الديـن في خطر يعنـي بوضوح أنّ مجتمعًا آخرَ سيتـمّ لومه على هذا الخطـر، ممّا يشجّع علـى الكراهية بين مجموعة لأخـرى. وعندما تفشـل سياسـة المواجهة في وضع حـدّ للخطر المفترض، فإنّ الإحباط يسود، وهذا بدوره يـؤدي إلى العنف كاستراتيجيّة نهائيّة. وأخيـرًا وعندما لا يعطي العنف النتيجة المرجـوّة، فإنّه يتمّ اللجوء إلى الانتحار.

إنّ الشّباب، وهم تقودهم العاطفـة، يلجؤون إلى التنفيـس عن الكراهية المتزايدة للعدوّ المفترض من خلال تنفيذ تفجيرات انتحاريّة، ومن ثَمّ فإنّ سياسة الدين بـ «التعرّض للهجوم» في مراحلها النهائيّة تتحوّل إلى سياسة الانتحار «الدينيّ»، وعليه فـإنّ عمليّة إطلاق تحرّكاتهم تحـت غطاء إحياء الدين يبرهن على أنّ هذا هو المسمار الأخير في نعشهم فضلاً عن غيرهم. والحقيقة هي أنّ الطريقة الوحيدة ليخلّص الإنسان نفسه من هذه السياسة التدميريّة هي بوقف العنف إلى أن يتمّ رفضه في الظروف جميعها. وما من عذر يمكن أن يكون مُسَوِّغًا لاستخدام العنف مهما كبر أو صغر.

إنّ عالم اليوم هو عالم الاختلافات، فكلّ رجل هو السيّد مختلف، وكلّ سيّدة هي السيّدة مختلفة. ولهذا نجد جميع أنـواع الاختلافات بين الناس. ولكن، عندما تأخذ هذه الاختلافات منحًى عاطفيًّـا، فإنّها تقود الناس إلى سلوك الحقد، وعليه فإنّ العنف يعصف بالمجتمع كاملاً.

وليس هناك سوى حلّ واحد ممكن لهذه المشكلة، وهو غرس فكرة أنّ على أفراد المجتمع جميعِهم العمل ضمن إطار سلميّ، بغضّ النظر عن الظروف المحيطة.

وعليهم، وتحت أيّ ظرف من الظروف ألا يصبحوا خـارج حلبة السّلام؛ فالعقليّـة الصحيحة لا يمكن تشكيلهـا إلا إذا أدرك النـاس حقيقة أنّه وفي هذا العالم لا يمكن تنفيذ أيّ مهمة إلا من خلال السّلام، كما لا يمكن إنجاز أيّ مَهَمَّة بنجاح من خلال العنف؛ لأنّ العنف لا يساهم إلا في التدمير وليس البناء. فلا يوجد دين في خطر أبدًا، فالدين الـذي يبدو أنّه في خطر ليس بدين على الإطلاق.

من الانتقام إلى العنف

كثيرًا ما نجد أنّـه إذا تـأذّى شخص على يـد آخر، أو مجموعـة على يد مجموعة أخرى؛ فإنّ الانتقام يصبح هو الهدف المباشر. وأولئك الذين عقدوا العزم على الانتقام يميلون إلى نسيان تحذير التاريخ- الإنذار المسجّل على كلّ جدار بلغة صامتة: فكّر قبل السعي إلى الانتقام؛ لأنّ الانتقام يقابله الانتقام. وبهذه الطريقة فإنّ سلسلة من أعمال العنف تتواصل على نحو مستمرّ حتى يصل الطرفان إلى استنتاج بعد استنفاد كلا الجانبين للطاقة والموارد بأنهما غير قادرين على ضبط الانتقام.

عندما يكـون لأيّ فرد أو جماعـة أيّ سبـب للشكوى، فإنّ الحـلّ لا يكمن في النشاطات الانتقاميّـة، وإنّما في الاستمرار في التحـرّك إلى الأمّام عن طريق تبنّي سياسة تقوم على تجنّب الصراع، إنّ مثل هذا التجنّب يضع حدًّا لهذه المشكلة من بدايتها، في حين يؤدّي رفض تجاهل المشكلة إلى ردّ فعل متسلسل ولا منتهٍ من الانتقام والكراهية والعنف. ومن ثَمّ، فإنّ سياسة تجنّب الصراع هي طريق محبّي السّلام، في حين أنّ الانتقام هو الطريق إلى العنف.

إنّ الانتقام موجّه نحو الآخـر دائمًا، ولكن في الواقع الفعلـيّ أنّ الضحيّة الكبرى هو الذي يختار نهج العنف بداية، والثمن الباهظ الذي يدفعه بسياسة الانتقام هو أنّ عقله يصبح مَخزنًا للتفكير السلبيّ، وهنا وبدلاً من استهلاك موارده في بناء حياته، فإنّه يبدأ بتبديدها على تدمير الآخرين.

فلو قلنا إنّ أحد الخصوم سبّب له استخدام ما يصل إلى خمسين بالمئة من طاقاته وموارده وما إلى ذلك، فإنّـه وبنفسه ونتيجة لسياسته الانتقاميّة سيبذّر الخمسين بالمئة الأخرى.

وبالوصول إلى التطرّف المنطقيّ، فإنّ الانتقام يعني أنّه وبعد محاولة لقتل أحدهم، فإنّ من شأن هذا إطلاق نهـج سيؤدّي بحياة الشخص الذي حاول القتل في النهاية، والحقيقة هـي أنّ الانتقام شرّ بغضّ النظر عن الظروف، بينما الامتناع عن الانتقام عن طريق تجاهلك هذه المسألة يكون وفي الأحوال جميعها فضيلة. ولاحظ هنا أنّـه إذا كان من يطالب بالانتقام عدوّك، فإنك وبِردّ الانتقام بالانتقام تصبـح عدوّ نفسك، أمّا أولئـك الذين يتحوّلون إلى عدوّي أنفسهم فلا يمكن إنقاذهم من الدمار من قِبَل أيٍّ كان.

صيغة للسلام الاجتماعيّ

إنّ السّلام هو الطبيعة، ويتأثر السّلام فقط في أيّ مجتمع، عندما يقود أيّ نشاط عنيف إلى تحييد الإنسان عن طبيعته. والحقيقة هي أنّ كلّ واحد منّا لديه (الأنا) الخاصّة به، وهي حالة ذهنيّة، التـي إذا تمّ استفزازها تشتعل وتعيث خرابًا في وقت قياسيّ. ولكن، وبحكم طبيعتهـا وَوَفقًا لنظام الخلق، فإنّها عمومًا تغطّ في سُبات عميق. وهكذا، فإنّ أسهل طريقة للحصول على مجتمع سلميّ هو بعدم إزعاج هذه الأنا. إنّ السّلام الاجتماعيّ يعكّره أولئك

الذين تمّ استفزاز غرورهم، فإذا امتنعنا عن مثل هذا الاستفزاز، فلن يكون هناك إزعاج للسلام الاجتماعيّ.

إنّ هذا يدلّ على أنّ إنشاء السّلام الاجتماعيّ وصيانته أمر في حدود سيطرتنا، وليس تحت رحمة العناصر المعادية للمجتمع. وهذا يدلّ بدوره على أنّك إذا لم تستفزّ (أنا) الآخرين، فسوف تكون بالتأكيد في مأمن من عنفهم.

إنّ حيازة الأسلحة لا يشكّل ضمانة للأمن الاجتماعيّ؛ فمبدأ الأمن الاجتماعيّ هو في أنْ تصبح جارًا محبًّا للسلام من أجل الآخرين. إنّك بعدم ارتكاب أيّ عنف ضدّهم، ستصبح وبالتأكيد في مأمن من الشرّ والعنف منهم، وبكرهك للآخرين فإنّك سوف تتلقى الكراهية منهم في المقابل، أمّا إذا كانت لديك مشاعر الحبّ والنوايا الحسنة تجاههم، فإنك سوف تتلقى المشاعر نفسها منهم. وبذا، فإنك في هذا العالم ستتلقّى السّلام مقابل السّلام، والعنف مقابل العنف.

الإرهاب ـ سلوك همجيّ

إنّ شرّ الإرهاب قد أصبح فتنةَ الوقت الحاضر، وهو مُدان على نطاق واسع، ولكنّ ماهيّة الإرهاب لم تُعرّف حتى الآن بصورة واضحة. فلقد تَوصّلتُ وبعد قدر كبير من التفكير في هذا الموضوع إلى الاستنتاج بأنّ الإرهاب يُعرّف أنّه عمل مسلّح تقوم به منظمات غير حكوميّة. وبالتأكيد، فإنّ للعامّة الحقّ في تقديم وجهة نظرهم على نحو سلميّ، ولكنّهم لا يملكون الحقّ قطعيًّا بالمشاركة في التشدّد عن طريق الحركات المسلّحة، التي تعارض كلّ القيم

المقبولة محليًّا وعالميًّا. إنّ ما يعرف بالإرهاب في الوقت الحاضر ما هو إلا نتيجة للعمل المسلّح من قِبل المنظّمات غير الحكوميّة.

وعلاوة على ذلك، فلا يمكن شنّ الحرب إلا عن طريق حكومة شرعيّة، وحتى بالنسبة إلى الحكومات الشرعيّة فإنّ هناك عددًا من الشروط الضروريّة لإطلاق الحملات المسلّحة. فعلى سبيل المثال، يمكن لهذه الحكومات أن تخوض معركة دفاعيّة فقط، ولا يمكنها أن تبدأ العدوان. وبالمثل، فإنّ الحرب الشرعيّة لا يمكن خوضها إلا بعد إعلان رسميّ للحرب، فلا مجال لحرب غير مُعلنة في مجتمع متحضّر، ثمّ إنّه وحتى في معركة دفاعيّة قانونيّة يجب على الحكومة أنْ تصدر الأوامر الصارمة بعدم التعرّض للمدنيين؛ لأن قتل غير المسلّحين أو إصابتهم يُعَدّ غيرَ قانونيّ حتى في حالة الحرب.

وَفقًا للمبادئ الإنسانيّة المعمول بها، فإنّ شكلاً واحدًا فقط من أنواع الحرب يُعَدّ مقبولاً، هي الحرب التي لا يمكن تجنّبها دفاعًا عن النفس، أمّا أيّ نوع آخرَ من الحروب، من مثل: الحرب العدوانيّة، والحرب المفوّضة، وحرب العصابات، والحرب غير المعلنة، جميعها فيُعَدُّ حربًا غير قانونيّة وَفقًا للمبادىء الدوليّة، ولا مجال لِعَدِّه حربًا مشروعة.

وَوَفقًا للتعريف أعلاه، فإنّ أيّ حركة تبنى على الإرهاب تُعَدّ بالتأكيد غير قانونيّة. ولا يمكن تبريرها ببساطة بإعطائها أسماء رنّانة وعليه، فإنّ أيّ محاولة لتحقيق أهداف الإنسان عن طريق الانخراط في الإرهاب بدلاً من استخدام الوسائل القانونيّة اللازمة لذلك، هو انتهاك لكلّ الحدود.

ولذلك لا بدّ من إنهاء الإرهاب في العصر الحديث، وهو الشيء الذي لا

يمكن أن يتمّ من خلال الهجمات المعاكسة، ويعود ذلك إلى سببين؛ أمّا أوّلهما فلأن ذلك سيكون أشبه بمحاولة قمع الإرهـاب غير التابع للدولة من خلال إرهاب الدولة، وأمّا ثانيهما فلأنّ الإرهاب الحديث يستمدّ قوّته من عقيدته أكثر ممّا يستمدّها من البنادق والقنابل، ولهذا السبب فإنّ عقيدة مضادّة بدلاً من التفجيرات المضادّة ستكون أكثر فعاليّة لوضع حدّ للإرهاب.

لقد وضع الإرهابيـون لأنفسهـم عقيدة خاصّـة تمنحهم القناعـة بأنهم وبموتهم في المعركة سيصبحون شهداء، وبهذا سيحصلون على حياة أفضل بكثير في الجنة.

وارتكازًا على هذا الاعتقاد، فإنّ التفجيراتِ الانتحاريّةَ كانت مقبولة تمامًا بالنسبة إليهم. وبهذه المعطيات، وعندما تظهر عقيدتهم المدّعاة أنّها غير مرتكزة على شيء من خلال خلق عقيدة مضادّة، فإنّ أفعالهم العنيفة سوف تصل إلى نهايتها.

وينبغي، علاوة على ذلك، معرفـة أنّ الإرهابيـين المعاصرين، وأكثرهم من جيل الشباب اليافع، لن يكونوا قادرين على مواصلة نشاطاتهم من غير المساهمات النقديّة الواسعـة، والتعاطف الشعبيّ بتملّقهـم كأبطال، وهذا الشيء كلّه يتلقّونه كـ «مسلّحين نشيطين» مـن «المسلّحين السلبيين»، وهذا يعني أولئك الذين لا يشاركون في نشاطات عنيفة.

إنّ المتشددين السلبيين هم، إذا جاز التعبير، خطّ الإرهاب الثاني، ودورهم مهمّ؛ وذلك بتوفير البنية التحتيّة والتموين اللازم. ولا يمكن شنّ حرب بنجاح إلا إذا استمرّت خطوط الإمداد بتقديم المتطلبات العسكريّة جميعها من غير أيّ انقطاع، وإذا حدث وانقطعت الإمدادات فإنّ الحـرب تصل إلى نهايتها

تلقائيًّا، كما لو أنّ إنسانًا يموت بسبب انقطاع الأوكسجين عنه، ولكنّ، وعلى نحو عقائديّ، فإنّ المتشددين السلبيين يعُدّون تقديم المساعدة الكاملة للإرهابيين النشيطين واجبهم. وإذا كان عدد الإرهابيين بالآلاف، فإنّ عدد المؤيدين يمتدّ إلى الملايين، وما دام الأمر كذلك، فإنّ إبادة الإرهابيين الناشطين المعروفين لن تكفي لوضع حدّ لظاهرة الإرهاب.

لا بدّ إذن من التصدّي لمسألة الدعم الهائل المقدّم من جميع أنحاء العالم من الإرهابيين السلبيين على الفور، كما لا بدّ من تغيير عقولهم وتحويل تفكيرهم المتعلق بالعنف إلى تفكير مسالم. عندها فقط سيكون من الممكن تخليص العالم من خطر الإرهاب.